حضور الآخر في كتابات طه حسين.

الأستاذ: محمد محمدي

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب واللغات

والعلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة سعيدة– الجزائر

تقديم:

لما كان عهد النهضة اتصل الشرق بالغرب، ووقف أبناء هذه البلاد على أساليب الغرب، عرفوا أن للنقد أصولا وطرقا، وأدركوا ما له من أهميّة في توجيه الكتابة والتّأليف.

هكذا كان لاتصال الشرق بالغرب وبأساليبه النقدية وكذا تخرج الطلبة على أساتذة توفر لهم الذوق الفني، والثقافة الأدبية الراقية، ولاتساع المجال لحرية القول والكتابة، أثر بليغ في نشأة الروح النقدية العصرية عند أبناء الشرق.

فكان أن نتتبعنا في هذا العمل تطور منهج رائد من رواد النقد الأدبي العربي الحديث، وواحد من الشخصيات الفذّة التي ذاع صيتها في أدبنا العربي.

ذاك هو" طه حسين"، الذي أقل ما يقال عن حياته أنها حبلى بالأحداث والمواقف التي تبرز تميّزه واحتلاله صدارة عالم التفكير الأدبي في القرن العشرين، ومن ثمة لا نغالي إذا قلنا أنه علم بارز في نهضتنا الأدبية الحديثة، ذلك أن كتاباته تناولت جوانب مختلفة من تراثنا، قديمه وحديثه، من أبرزها الجانب النقدي الذي كانت له فيه إسهامات كبيرة لا ينكرها أيّ دارس للحركة الأدبية والنقدية بشكل خاص.

فقد كان لجرأته الدور الكبير في دفع الثقافة العربية نحو مرحلة جديدة في مسار النقد العربي الحديث.

طه حسين ومنهجه النقدي:

نبذة عن طه حسين:



واحد من أهم المفكرين العرب في القرن العشرين ولد في الرابع عشر من نوفمبر عام 1889[1]، في غربة" الكيلو" التي تقع مسافة كيلومتر من قرية" مغاغة" بصعيد مصر، والده موظف

بسيط، يسير الحال، يعول ثلاثة عشرة ولدا طه حسين سابعهم.

فقد بصره في السادسة من عمره نتيجة الفقر والجهل، وفي قرية مغاغة عاش طفولته الباكرة وحفظ القرآن قبل أن يغادرها إلى الأزهر طلبا للعلم، تتلمذ على يد الإمام محمد عبده الذي علمه التمرد على طرائق الاتباعيين من مشايخ الأزهر، فلم يوفق فيه وانتهى به الأمر إلى الطرد منه واللجوء إلى الجامعة المصرية التي حصل منها على درجة الدكتوراه الأولى في الآداب سنة 1914 عن أديبه الأثير" أبي العلاء المعري"[2].

ثم دفعه طموحه إلى الدراسات العليا في باريس ونجح في نهاية المطاف في الحصول على شهادة الدكتوراه الفرنسية من جامعة السربون التي أنجزها حول" علم من أعلام تونس وفد من أفذاذها الكبار هو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون واضع علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وقد جاء عنوان أطروحة طه مشيرا لهما معا فكان تحديدا فلسفة ابن خلدون الاجتماعية[3].

عاد إلى مصر سنة 1919 بعد أن فرغ من رسالته عن ابن خلدون وعمل أستاذا للتاريخ اليوناني والروماني سنة 1925، حيث تم تعيينه أستاذا في قسم اللغة العربية مع تحول الجامعة الأهلية إلى جامعة حكومية، وما لبث سنة 1926 أن أصدر كتابه" في الشعر الجاهلي"[4] الذي أحدث عواصف من ردود الفعل المعارضة وأسهم في الانتقال بمناهج البحث الأدبي والتاريخي نقلة كبيرة فيما يتصل بتأكيد حرية العقل في الاجتهاد. وظل طه حسين يثير عواصف التجديد حوله، في مؤلفاته المتتابعة ومقالاته المتلاحقة وإبداعاته المتدافعة، طوال مسيرته التي لم تفقد توهج جذوتها العقلانية قط، حتى حين أصبح عميدا لكلية الآداب سنة 1930. حسين رفض الموافقة على منح الدكتوراه الفخرية لكبار السياسيين سنة 1932، وحين واجه هجوم أنصار الحكم الاستبدادي في البرلمان، الأمر الذي أدى إلى طرده من الجماعة التي لم يعد إليها إلاّ بعد سقوط حكومة صدقي باشا.[5]

تولى سنة 1943 إدارة جامعة الإسكندرية، ولم يكف عن حلمه بمستقبل الثقافة أو انحيازه إلى المعذبين في الأرض في الأربعينات، حيث عين وزيرا للمعارف في الوزارة الوفدية في 1950/01/13 إلى غاية 1952/01/21، خلال هذه الفترة القصيرة أحدث ثورة كبيرة في نشر التعليم في مصر، ورفع شعاره المعروف الذي آمن به ودعا إليه:" التعليم ضروري للناس ضرورة الماء والهواء".[6] لقب طه حسين بعميد الأدب

العربي لتأثيره الواضح على الثقافة المصرية والعربية، فهو خالق السيرة الذاتية مع كتابه " الأيام" الذي نشر جزءه الأوّل في مقالات متتالية في أعداد الهلال عام 1926 ونشر كاملا في 1929.[7] تميزت هذه الفترة من حياة الأديب– رحمه الله– بسخطه الواضح على تقاليد مجتمعه وعاداته، لذلك كان مؤلفه الأيام طرازا فريدا من السيرة، ويبدو أن حدة الهجوم عليه دفعته لاستبطان حياة الصبار القاسية ووضعها موضع المساءلة ليستمد من معجزته الخاصة التي قاوم بها العمى والجهل في الماضي، القدرة على مواجهة عواصف الحاضر.

كان لطه حسين أدوار جذرية متعددة قام بها، أسهمت في الانتقال بالإنسان العربي من مستوى الضرورة إلى مستوى الحرية ومن الظلم إلى العدل ومن التخلف إلى التقدم ومن ثقافة الظلام إلى ثقافة الاستنارة، فهو أجسر دعاة العقلانية في الفكر، والاستقلالية في الرأي، والابتكار والتحرر في البحث الأدبي وكذا التمرد على التقاليد الجامدة.

وظل يكتب في عهد الثورة المصرية إلى أن توفي عبد الناصر وقامت حرب أكتوبر، وفي فرنسا التقى طه حسين زميلة له، أصبحت زوجته فيما بعد وذلك في 1915/05/12 كان لها الدور الكبير في حياته، فقد كانت تترجم له وهي التي ساعدته على الإطلاع على ثقافة الآخر.

توفي طه حسين في 1973/10/28[8] تاركا تاريخا وراءه كما هائلا من الكتب والمؤلفات منها" في الأدب الجاهلي"،" الأيام" في سيرته الذاتية. إضافة إلى بعض الأعمال القصصية منها" دعاء الكروان"،" شجرة البؤس"،" المعذبون في الأرض"، والتاريخية من مثل:" على هامش السيرة"، ثم أعماله النقدية" كحديث الأربعاء"،" من حديث الشعر والنثر" والفكرية منها:" مستقبل الثقافة في مصر" ومن مؤلفاته أيضا:" مرآة الضمير الحديث" " خصام ونقد"،" بين بين" " نقد واضح"،" من بعيد" " قادة الفكر"،" جنة الحيوان"،" تقليد وتجديد" " خواطر"،" من آداب التمثيل الغربي"،" رحلة الربيع والصيف"،" من لغو الصيف"،" قصص تمثيلية"، وغيرها كثير[9].

يقول الدكتور محمد مصايف مشيدا بأعماله وما تركه من آثار مثلته خير تمثيل يقول" أجل انتقل طه حسين إلى رحمة الله، ولكن أفكاره وآثاره ستظل مصدر إشعاع،

وستبقى مواقفه خير أسوة لكل أديب ملتزم يأبى أن يستعمل قلمه في خدمة غير الحق والفن الصحيح، وبهذا ستعجز أستاره عن آن أن تحجبه عن الأزمان"[10].

ثقافته:

طه حسين المفكر الحر الذي تناول بجرأة كبيرة قضايا المسكوت عنه التي مازلنا نخوض غمارها حتى أيامنا هذه من قضايا الأصالة والمعاصرة، وكذا الموروث والمستحدث، ثم قضايا التنازع حول ثقافة النقل وحرية العقل إلى العلاقة بين الشرق والغرب وقضايا التجديد في الأدب والفكر.

إنّه الأعمى البصير الذي برغم عاهة العمى التي قدّر له أن يصاب بها طفلا استطاع منذ نعومة أظافره أن يرسم صورة لمن حوله دون أن يراهم، معتمدا على حواسه الأخرى" لاشك أن السماع والحفظ من أدق الملكات في طه حسين وأرهفها بالقياس إلى غيرها لما نعلمه من أمره، فلقد كانت أذنه هي النافذة الكبرى يطلّ منها على العالم ويستقبل بها أسراره وخباياه".[11]

ومطلقا العنان لعقله الصغير ومخيّلته للذهاب بعيدا حيث يريد، وبذاكرته القوية استطاع أن يحفظ القرآن قبل أن يكمل العاشرة، وبعدها دخل الأزهر حيث عدّه والده مشروع شيخ إلاّ أنّه تمرد على هذه الأمنية في تأثره بثلاثة من أهم مفكري مصر آنذاك هم: محمد عبده، قاسم أمين لطفي السيد[12].

تكونت أصول حاسته الأدبية وشحذت في بيئته حيث" حفظ شيئا من المتون أو كتاب مجموع المتون وشيئا من ألفية بن مالك تأهبا للأزهر واستعدادا للانتظام في طلابه، فلما جاءه واختلف إلى أساتذته وعرف أصول النحو والصرف والاشتقاق أو بمعنى آخر عرف السبيل إلى تصريف القول وتركيب الكلام، اكتملت عنده أداة الأديب... وتلك هي أولى درجات الأدب"[13]. هكذا كان طه حسين فإذا جاء الأزهر انصرف عن الفقه والنحو يقول حلمي مرزوق:" فانصرف عن الفقه والنحو والتوحيد وما شابههما من علوم الأزهر الأصيلة... ولقد حاول طه حسين أن يرجع باللائمة في انصرافه عن هذه العلوم إلى شيوخ الأزهر وطرائق التعليم فيه"[14].

ولكن الدكتور حلمي مرزوق يرى أن نزعته الأدبية وملكته الفطرية التي شحذتها شواحذ هذه البيئة وكذا طبيعة التمرد التي شب عليها هي التي صرفته عن هذه العلوم والمتون إلى الأدب ودرسه.

فكان انخراطه في سلك الثائرين على دراسات الأزهر، حيث كان على رأسهم الشيخ سيد بن علي المصرفي الذي أكبر فيه نزعة التمرد وأعزاه بالثورة والنيل من جدواه" وكان أشد صفات(المرصفي) أنه يكره الأزهريين وتقاليدهم، ويزدري دراستهم ومذاهبهم في هذه الدراسة وكان يقضي أكثر وقته عاتبا بالشيوخ ساخرا منهم محاولا أن يحبب الأدب إلى تلاميذه ويبغض إليهم دروس الأزهر المألوفة وكتبه التقليدية"[15].

ولما كان تأثره كبيرا بالشيخ المرصفي وصلته به محكمة أصبح يسير على مذاهبه فصاغ أفكاره على منواله وأعطى نقده ذوقا على مثال ذوقه يقول في هذا الصدد: " أستاذنا الجليل سيد بن على المرصفي أصح من عرفت بمصر فقها في اللغة وأسلمهم ذوقا في النقد وأصدقهم رأيا في الأدب وأكثرهم رواية للشعر ولا سيما شعر الجاهلية وصدر الإسلام"[16].

ويقول في تحفته" الأيام" أنه" عرف مع الشيخ السبيل إلى أمهات الكتب العربية القديمة التي لا تحسب في كتب الأزهر ولا كانت لطلبته وأساتذته من أمثال ديوان الحماسة ونهج البلاغة بشرح الإمام والكامل للمبرد ومقامات الحرير والهمذاني والمعلقات وغيرها"[17].

ولا يفوتنا أن طه حسين جذبته إليها بيئات أخرى غير بيئة التجديد في الأزهر، ولعل أوّلها الطرابيش وهي بيئة لطفي السيد وأتباعه ممن انتهجوا سبيل المدارس المدنية والعلوم الحديثة ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل حاول طه حسين تعلم الفرنسية عندما كانت الجامعة تفضل الإلمام باللغات الأجنبية، حيث انضم إلى المدرسة التي أنشأها الحزب الوطني بسعي من جاويش لإعداد بعثة أزهرية إلى أوربا، بلغ عدد طلابها الأربعمائة وما يزيد، كان في جملتهم طه حسين[18].

هكذا جمع طه حسين بين القديم والجديد في الأزهر والجامعة، فجمع بين الأصالة في التكوين من الأزهر وبين مناهج البحث التي تلقاها على أيدي المستشرقين، من خلال محاضرات كارلو نللينو من تاريخ الأدب العربي في العصر الأموي وفيما كان يلقيه سانتلانا من محاضرات عن الفلسفة الإسلامية وغيرها[19].

ولم يكن حسين عقلا بسيطا في حياته فقد جسد ثورة العقل العربي على القديم المقدس، كانت هذه الثورة عنيفة على الثقافة العربية فلم يستطيع الذهن العربي تقبّل

وترجمة ما جاء به وما قدمه، ذلك أن فكره كان مزيجا بين ثقافتي الغرب والشرق حيث تلقى تعليمه العالي في مصر وفرنسا.

منهجه النقدي:

إن المتتبع أعمال طه حسين يلحظ تميزها بمجموعة من المناهج النقدية• فنجد تأثره بسانت بيف، جول لوميتر، آنا تول فرانس جعله يأخذ بنظرية التعبير الذاتي، ودفعه تأثره بتين، برونتيار ولونسون إلى الأخذ بالنظرية التعبير الاجتماعي إذ" يعتبر تين الرائد الفعلي لهذا الاتجاه الذي عرف بالمنهج التاريخي... وهكذا اشتط تين في هذا الاتجاه حتى أصبح من رواد الحتمية التاريخية أو الجبر التاريخي الذي أخده طه حسين عن أساتذته المستشرقين في الجامعة"[20]. كما تمسك طه حسين بمنهج الشك الديكارتي وموضوعية ابن خلدون فضلا عن تمثله لكثير من فلسفة أبي العلاء، هذا ما جعله يحافظ على قسط كبير من الموضوعية في دراساته النقدية.

يخلص طه حسين في تحديد للعمل النقدي بأنه مجتمع من الصور لنفسيات ثلاث: هي نفسية الأديب المؤثر ونفسية المتلقي المتأثر ونفسية الناقد الذي يقضي بينهما بالعدل.

جمع طه حسين بين معالم المنهج التأثري الذاتي ومعالم المنهج التأثري الواقعي، بفضل ما تميز به من موضوعية فنية، فكان المنهج الناتج منهجا جديدا هو المنهج التأثري الجمالي الذي يراعي فنية الإبداع الأدبي وجماليته داخل دائرة واسعة تشمل وجدان الأديب والواقع الاجتماعي.[21] والمنهج التاريخي يحاول دراسة الأدب من خلال ارتباطه بالتاريخ أو بعبارة أخرى من خلال الظروف والأحداث التي أحاطت بالأديب والتي لا شك أنها أثرت فيه، فأصحاب هذا المنهج يرون أنّ أدب أي أمة من الأمم هو صورة لحياتها السياسية والاجتماعية في حقب تاريخية متعاقبة ولذلك يمكننا أن نعد أدب هذه الأمة مصدرا من مصادرها التاريخية، لأن الأدباء يعايشون الأحداث المختلفة، فيصورونها في أدبهم، كما يتأثرون بها أيضا، بذلك يرون أن التاريخ هو المجال الوحيد الذي نستطيع من خلاله دراسة الأعمال الأدبية[22].

فالإبداع الأدبي عند طه حسين مزيج من العوامل الاجتماعية التي يفرزها المجتمع والمؤثرات الذاتية التي يكتسبها الأديب، فهو ينطلق في تحديده للإبداع الأدبي من أنه ظاهرة اجتماعية لا يمكن أن تكون إلاّ في الجماعة التي تسمع أو تقرأ الإبداع الأدبي، وبذلك فلا يجوز للأديب أن يصوّر خواطره وآراءه، وهو لا يريد بهذا إلا تصوير نفسه

ولا يوجه التعبير إلاّ إليه، لأن الأديب كائن اجتماعي لا يستطيع الإنفراد بحياته الأدبية، ولا يستقم أمره إذ اشتدّت صلته بالناس فكان صدى لحياتهم وكانوا صدى لإنتاجه[23].

غير أن عميد الأدب العربي لم يثبت على هذا المنهج ولا غيره من مذاهب سانت بيف وبرونتير واتخذ لنفسه منهجا خاصا ظهر مع كتابه" في الأدب الجاهلي" يقول حلمي مرزوق:" إلاّ أن طه حسين لا يلبث أن يسافر إلى فرنسا ثم يعود منها ثائرا بهذا المنهج الجديد لجفافه وجفائه، وذلك لأن تاريخ الأدب لا يستطيع أن يعتمد على مناهج البحث العلمي الخالص وحدها، وإنّما هو مضطر معها إلى الذوق، وهكذا تلتقي عنده الذاتية والموضوعية"[24].

إذن هكذا تلتقي النزعة العلمية بالنزعة الأدبية في أعمال طه حسين النقدية يقول " فأنت ترى أن تاريخ الآداب منقسم بطبه إلى هذين القسمين: القسم العلمي والقسم الفني ولكن هذين ليسا متمايزين"[25].

وهذا التداخل والتمازج الحاصل بين علمية الأدب وفنيته هو سمة من سمات البحث العلمي الفني، هكذا مال طه حسين بعد عودته من فرنسا عن الجفاف العلمي إلى الرقة الأدبية، إلاّ أنّه هذه المرة جاء بجملة من الأصول الفنية التي اتخذّها معيارا للنقد نذكر منها: الصدق الفني الذي يشتمل على مجموعة من المبادئ النقدية كمجاراة العصر، أي أنّه من الصدق أن تستجيب لمشاكل العصر ودواعي التطور، فلا يقف الأديب عند مواضيع القدماء، وأن لا يتكلف في التعبير أسلوبا غير أسلوبه ولا نهجا غير نهجه، يقول حلمي مرزوق في هذا السياق:

" لقد حاول طه حسين أن يخلص الأدب من هذه الأوضار فتبنى هذه الدعوة، وألح على مجاراة العصر ومطالب الذوق ولا يكون ذلك إلاّ بالصدور عن مشاكل الحياة المعاصرة والتعبير عنها تعبيرا مباشرا لا اصطناع فيه ولا تكلف ولا تقليد"[26].

والإبداع الأدبي عند طه حسين ليس مجرد وسيلة مباشرة لتقديم خدمة ما، أي أن وظيفته أوسع من أن تكون وظيفة تعليمية توجيهية في صورتها المباشرة، يظهر موقفه هذا من خلال معارضته للنقاد الذين طالبوا أن ينزل الأديب إلى الشعب، فعلى عكس هؤلاء يرى طه حسين أن يبقى الأدب في مكانته اللائقة به كفن وعلى الناس محاولة الصعود إليه لأن نزوله إليهم يفقده الكثير من خصائصه الفنية يقول:" الفن الرفيع لا ينزل وإنّما يرقى إليه طلابه ومحبوه وليس الأدباء مكلفين بأن يعلموا الناس ويبلغوا بهم من

التعليم والثقافة إلى حيث يستطيعون أن يذوقوا الآداب الرفيعة والفنون الجميلة... وكل ما يطلب من الأديب ألا يكون أدبه ممعنا في الغرابة"[27].

وإذا كان طه حسين قد رفض أن يسخر الإبداع الأدبي ليكون وسيلة إصلاح وتوجيه، فهذا لا يعني أنه عقيم لا يقدم من هذا شيئا ولكن معناه أن يكون هذا الإصلاح وتحسين حال الشعوب أشياء تصدر صدورا طبيعيا عن الإبداع الأدبي.

يتلخص موقف طه حسين من وظيفة الإبداع الأدبي في أمرين: الوظيفة الروحية التي ركز عليها المنهج التأثري الذاتي، والوظيفة التعليمية التي ركز عليها المنهج التأثري الواقعي، دون أن يهمل طبيعة الإبداع الأدبي التي تميزه عن الأعمال العلمية وباقي النشاطات الثقافية، فالإبداع الأدبي يتضمن الفهم بالإضافة إلى ما يثير الإعجاب بفنيته والتلذذ بجماله، ومن ثمة فالعقل والشعور مهمان في العملية الإبداعية.[28]

لقد استفاد طه حسين من الغرب فائدة لا يتطرق إليها شك، وهذه الفائدة لا تتضح في أسلوبه فحسب وإنما هي شائعة في فكره وأدبه ونقده، إلاّ أنّه لم يتنكر للأدب العربي في قراراته يوما، وإن ألبس قواعده لباسا ظاهرا من النقد الأوروبي[29] وفتح هذا الباب واسعا أمام مجموعة كبيرة من النقاد التأثريين الذين اندفعوا إلى مؤازرته مطبقين بذلك معالم المنهج التأثري الجمالي ولعل من أشهرهم: شفيق جبري، يحي حقي، شوقي ضيف وإحسان عباس.[30]

لحظة حرجة في حياة طه حسين:

مما سبقت الإشارة إليه أن طه حسين غيّر في الأدب العربي وألبسه ثوبا أوروبيا وساقه على طريق الأدب الأوروبي بصورة عامة والأدب الفرنسي بصورة خاصة، فقلد الفلاسفة الغربيين في الشك والتشكيك، دون الاهتمام بأن يكون عمله بحثا علميا يعتمد على سند عقلي صحيح، فبحثه وتاريخه كله يرمي إلى قصد واحد هو سيادة الفكر الغربي وسيطرته على الثقافة والهوية العربية الإسلامية هذا الكلام ينطبق خاصة على مؤلفه:" في الشعر الجاهلي" الذي اتخذ فيه أسلوبا أوروبيا لم يكن سائدا ولا معروفا في مصر، ذلك هو " المنهج الديكارتي"، إنّه منهج الشك من أجل الوصول إلى اليقين يقول:" أريد أن أصطنع هذا المنهج الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أوّل هذا العصر، والناس جميعا يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان

يعلمه من قبل... يجب حين نستقبل البحث عن الأدب العربي وتاريخه أن ننسى عواطفنا الدينية وكل ما يتصل بها، وأن ننسى ما يضاد هذه العواطف القومية والدينية"[31].

هكذا بحث طه حسين عن الأدب العربي والفكر الإسلامي بروح تقوم على استعلاء الفكر الغربي على العرب والمسلمين، خاصة بعد صدور هذا المؤلف سنة 1926 الذي أقام الدنيا ولم يقعدها. وكان الأسلوب الذي اتخذه فيه هو المنهج الفلسفي الذي جاء به" ديكارت" للبحث عن حقائق الأشياء يقول غالي شكري أن المنهج الذي اتبعه الشيخ طه حسين قد استعاره من ديكارت الفيلسوف الفرنسي، وهو منهج الشك في كل شيء، والقاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوًا تاما.[32]

والمسألة ليست مسألة التشكيك في الشعر الجاهلي في حد ذاته، وإنّما المساس بالتراث الفكري والديني، ذلك أنّه ليس بالبعيد أن يتجرأ حسين على التشكيك بالمقدسات والقيم الثابتة بحجة الوصول إلى اليقين، من هنا اتسعت رقعة الموقف وانشغل الجميع بهذا الكتاب والرد عليه يقول الدكتور خيري شبلي:" وقد بلغ من خطورة الأمر أن ردّ عليه البعض ليس بمقالات بل بكتب كبيرة ومحاضرات منها محاضرات الشيخ محمد الخضراوي وكتاب" الشهاب الراصد" لمجد لطفي جمعة وكتاب نقد كتاب" في الشعر الجاهلي" لمحمد لخضر حسين... وانطلاقا من رفضهم لهذا المنهج راحوا يراجعون طه حسين في آرائه وافتراضاته وأحكامه وأدلته وبراهينه"[33].

وليس هذا وحسب، بل وقف المفكر الكبير طه حسين، رائد النهضة الثقافية أمام محاكمة قانونية يشير إليها الدكتور غالي شكري بقوله:" إذ ببلاغ من طالب أزهري يدعى خليل حسين مؤرخ في 30 مايو 1926 إلى سعادة النائب العمومي يتهم فيه طه حسين بأنّه أصدر كتابا يشتمل على طعن صريح في القرآن العظيم حيث نسب الخرافة والكذب لهذا الكتاب السماوي الكريم"[34].

ثم وصل سعادة النائب العمومي خطابا أكثر خطورة لأنّ صاحبه هو شيخ الجامع الأزهر شخصيا يوجز فيه تقريرا لعلماء الأزهر حول كتاب طه حسين، مطالبا باتخاذ الوسائل القانونية الفعالة الناجعة ضد هذا الطعن على دين الدولة الرسمي وتقديمه للمحاكمة. وفي 14 أيلول سبتمبر 1926 تقدم عبد الرحمن البنان عضو مجلس النواب ببلاغ آخر ذكر فيه" أن الأستاذ طه حسين المدرس بالجماعة المصرية نشر ووزّع

وعرض للبيع في المحافل والمحلات العامة كتابا أسماه" في الشعر الجاهلي" طعن وتعدى فيه على الدين الإسلامي وهو دين الدولة بعبارات صريحة وواردة في كتابه".[35]

الواقع أن المسألة لم تكن سهلة ولا بسيطة فهي ليست مجرد بلاغ من فرد أو اثنين، كما أنها ليست من شخص عادي وإنما من شخصيات لها حيثيات اجتماعية، لذلك كان على النيابة أن تتحرك، ففي 19 أكتوبر 1926 تولى الأستاذ محمد نور رئيس نيابة مصر مسؤولية التحقيق مع المهتم في أربع نقاط رئيسة هي:

أولا: أن المؤلف أهان الدين الإسلامي بتكذيب القرآن في إخباره عن إبراهيم وإسماعيل حيث ذكر في الصفحة 62 من كتابه" في الشعر الجاهلي" طبعة1 أنّه:" ... للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودها التاريخي فضلا عن إثبات هذه القصة التي تحدثنا بهجرة إسماعيل بن إبراهيم إلى مكة، ونشأة العرب المستعربة فيها ونحن مضطرون إلى نرى في هذه القصة نوعا الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة"[36] إلى آخر ما جاء في هذا الصدد.

ثانيا: أن المؤلف طعن في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم طعنا فاحشا حين قال في صفحة 72 من كتبه" ونوع آخر من تأثير الدين في انتحال الشعر وإضافته إلى الجاهليين، وهو ما يتصل بتعظيم شأن النبي من ناحية أسرته ونسبه إلى قريش".

ثالثا: أن المؤلف أنكر أن للإسلام أولوية في بلاد العرب وأنه دين إبراهيم يقول في صفحة 80:" أما المسلمون فقد أرادوا أن يثبتوا أن للإسلام أولية في بلاد العرب كانت قبل أن يبعث النبي" إلى أن يقول في صفحة 81:" وشاعت في العرب أثناء ظهور الإسلام وبعده فكرة أن الإسلام يجدد دين إبراهيم ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين إبراهيم هذا قد كان دين العرب في عصر من العصور".

رابعا: ما تعرض له المؤلف في شأن القراءات السبع المجمع عليها والثابتة لدى المسلمين جميعا، وأنّه في كلامه عنها يزعم عدم إنزالها من عند الله، وأنّ هذه القراءات إنما قرأتها العرب حسب ما استطاعت لا كما أوحى الله بها على لسان النبي صلى الله عليه وسلم[37].

يبحث النائب في نقاط الاهتمام الواحدة تلو الأخرى فيشير إلى أن" المؤلف أباح لنفسه أن يخلط بين الدين والعلم، وهو القائل بأن الدين يجب أن يكون بمعزل عن هذا النوع من البحث الذي هو بطبيعته قابل للتغيير والنقص والشك والإنكار"[38].

ويشير الدكتور خيري شبلي في محاكمة طه حسين بأنّ المؤلف ردّ على ذلك بقوله أن السبب في ذلك هو أنه يناقش طائفة من العلماء والأدباء وكلهم يقرون أن العرب المستعربة قد أخذوا لغتهم عن العرب العاربة عن طريق أبيهم إسماعيل، وهم جميعا سيتدلون بنصوص من القرآن والحديث، وهذه النصوص لا تلزم من الناحية العلمية[39].

وعن نقطة الاتهام الثاني يقول النائب بعد تحليلها أنه لا يرى اعتراضا في هذا البحث من حيث هو، وإنما تكلم المؤلف فيما يختص بأسرة الرسول عليه الصلاة والسلام ونسبه بعبارات خالية من كل احترام وبشكل تهكمي غير لائق.

أما عن الاتهام الثالث فلا يعترض النائب على مراد المؤلف في هذه المسألة، ولكنه يرى أنه كان سيء التعبير جدا في بعض عباراته.

ويبقى الاتهام الأخير الذي يخلص فيه النائب إلى أن ما ذكره المؤلف في ما يخص تعدد القراءات وتعدد اللهجات هو بحث علمي لا تعارض بينه وبين الدين ولا اعتراض لنا عليه.[40]

وبهذا ينتهي النائب من عرض وجهة نظره الأدبية والنقدية وينتقل إلى الحكم النهائي الذي مؤداه عدم توفر القصد الجنائي. يقول خير شبلي:" يضيف النائب موضحا أن المؤلف أنكر في التحقيقات أنه يريد الطعن على الدين الإسلامي وقال أنه ذكر ما ذكر في سبيل البحث العلمي وخدمة العلم لا غير"[41].

كان الإفراج عن الكاتب طه حسين هو قرار النيابة حول أهم قضية أدبية ثارت في بداية نهضتنا الثقافية، وما يهمنا نحن هو ما أسفرت عنه معركة الشعر الجاهلي هو " انتصار الأسلوب العلمي وسيادته في الدراسات الأدبية عموما، وسيادة مبدأ عدم التسليم بالحقائق الثابتة على علاتها، فكل شيء يجب أن يخضع لإعادة التقييم انطلاقا من نقطة الشك في صدق الأحكام السابقة".[42]

تجديد ذكرى أبي العلاء في الميزان النقدي:

الكتاب نسخة عن رسالة دكتوراه طه حسين، ضمت فحواه مائتين وتسعين صفحة، موزعة على خمس مقالات.

مضمون الكتاب:

مقدمة الطبعة الثانية: أول ما استهل به طه حسين مؤلفه هو مقدمة الطبعة الثانية التي طبعت وهو في أوربا، ليعود سنة 1919 والناس متلهفون إلى طبعة جديدة تطفئ

ظمأ التاريخ في ذواتهم، بالفعل أعاد طه حسين نشره مع قليل من التمحيص وإعادة النظر في مسائل رأى من الضروري التفصيل فيها، والتي صاغها من قبل في المقالة الخامسة متحدثا عن الفلسفة العلائية التي لا شك أنها تتعالق مع حكمة الهند وفلسفة أبيقور، وشيء من ألوان الإيجاز في وصف آثاره الأدبية التي رأى أن يستبدلها، غير أن الوقت قطع رغبة حسين في مزيد الإطناب، مع العلم أن الكتاب لقي ما لقيه من نقد ظل بعيدا من الإصلاح إذ يقول:" ولقد علمت أن ناسا قرأوا هذا الكتاب فدفعوا أو اندفعوا إلى نقده بعلم وبغير علم، مخلصين وغير مخلصين ولقد كنت أود لو وجدت فيما كتبوا شيئا يستحق أن يسطر ويناقش، ولكني آسف الأسف كله لأني أجد فيما كتبوه إلاّ شؤما وسبا، وإلاّ طرقا في فهم معوجة ومناهج في التفكير عتيقة".[43]

ويعقب أنه لا يزال ينتظر من يتمحص هذا الكتاب ويعلق عليه بشيء من الرغبة في العلم، غير متخذ النقد سبيلا لإفراغ أحقاده، لذا فالانصراف عن تلك الأقوال واجب، حتى يتم التفرغ لما ينفع.

ثم نشر الكتاب سنة 1922 على ما صدر به أوّل مرة سنة 1914، دون تغيير أو تبديل، ليعدله حسين قراءة بكتاب مفصل حول رسالة الغفران إن وفقه الله في ذلك، وكانت هذه مقدمة طبعته الثانية التي كتبها بالقاهرة فبراير سنة 1922.

ثم ينتقل طه حسين إلى" مقدمة الكتاب" الذي بين أيدينا، والتي يتصدرها مزيج من حديث عن علاقته بأستاذه سيد بن علي المرصفي، وتأثره الكبير به يقول:" ولم يقف الأمر بيني وبينه على ما يكون بين الأستاذ والتلميذ من الصلة بل نشأ بينا نوع من المحبة يشوبها في نفسي الإجلال والإكبار".[44]

وبعد ذلك ينتقل إلى الجامعة ودراسته على يد أستاذة مستشرقين، حيث سمع عنهم دروسا لم يعرفها، وأدرك أن الباحث عن تاريخ الآداب ليس عليه إتقان علوم اللغة وآدابها فحسب، بل يجب أن يلم بعلوم الفلسفة وأصول اللغة القديمة، ولابد أن يدرس علم النفس إذا أراد أن يتفق الفهم لما يتركه المبدع من آثار، ثم أن اللغة العربية وحدها لا تكفي لمن أراد أن يكون أديبا أو مؤرخا للآداب، كل هذه العقبات وجدها حسين في مدرجات الجامعة يقول: " إنها قد غيرت رأيي في الأدب ومذهبي في النقد التغيير كله".[45]

لا ينكر طه حسين منفعة أستاذه المرصفي ومذهبه في تكوين ملكته في الكتابة والتأليف، وتقوية الطالب في النقد وحسن فهم آثار العرب، ومذهب الجامعة نافع كله

لاستخراج نوع من العلم لم نكن نعرفه برغم حاجتنا إليه، وهو تاريخ الآداب لفهم الأمة العربية والإسلامية فهما صحيحا.

فكان أن قدم طه حسين سنة 1914 رسالة إلى الجامعة يحوز بها امتحان العالمية، وقد اختار لها موضوع أبي العلاء من بين المواضيع الكثير التي عرضت عليه، وأرجع سبب ذلك إلى حديث الناس عن لزومياته، ووصفهم له بالإسلام مرة وبالكفر مرة أخرى، وكذا حديث الفرنجة عنه بعناية تامة فقد ترجموا لزومياته إلى الألمانية، وترجموا رسالة الغفران إلى الإنجليزية، كما رأى بينهما تشابها في عاهة العمى التي لحقت كلاهما في أول صباه.

وكانت النتيجة أنّه فهم فلسفة أبي العلاء وردها إلى مصادرها، كما فهم الروح الأدبي لهذا الحكيم وقد كان شخصا مبهما لا يعرف الناس عنه إلاّ اسما تحيط به الشكوك والأوهام.

ويتطرق حسين في مقدمته إلى أنّ كتابه شمل ألوانا من القصور منه: إطالة وإسهاب شديد في المقالة الأولى، ذلك أنه يشرح طريقته في البحث والمقالة الثالثة تحتاج إلى مقارنة مطولة بين أبي العلاء والمتنبي، إلاّ أنّه أعرض عنها لأنه لم يظفر بحياة المتنبي مفصلة، ثم أن المقالة الرابعة تحتاج إلى إطالة لإحصاء التلاميذ والرواة عن أبي العلاء، لكنه أعرض أيضا عن ذلك لأن المصادر لم تسعفه، كما احتاجت المقالة الخامسة إلى تفصيل المقارنة بين أبي العلاء وأبيقور، ولم يفعل ذلك لأن فلسفة أبيقور لم يفهمها إلاّ من قرأ في اللاتينية لوكريس ونثر شيشيرون. كانت هذه مقدمة الطبعة السادسة التي نحن بصدد دراستها والتي كتبها في 14 ديسمبر 1951.

في" تمهيده" يشير إلى أنّ الكتاب لم يكن دراسة لحياة أبي العلاء وحده، وإنّما دراسة لحياة النفس الإسلامية في عصره، فأبو العلاء، ثمرة من ثمرات عصره، عمل على إنضاجها الزمان والمكان، والحال الاجتماعية والسياسة والاقتصادية، يقول:

" يدل ما قدمناه على أنّا نرى الجبر في التاريخ أي أن الحياة الاجتماعية إنّما تأخذ أشكالها المختلفة وتتزل بمنازلها المتباينة بتأثير العلل والأسباب"[46].

إذن يريد طه حسين بكتابه دراسة حال الأمة العربية، فحكيم المعرة عربي عاش عيشة عربية وآثاره كلها عربية فمن أراد أن يستقصي أمره كان خليقا أن يبحث عن حال الأمة العربية في عصره.

فلما كان أبو العلاء خاضعا في أدبه وعلمه للزمان والمكان، قدم الكاتب فصلا عن حياته وآخر لبلده ثم لأسرته كونها أوّل ما يحيط به، فإذا فرغ من هذا انتقل إلى الحياة التاريخية للرجل، فيعمد إلى منزلته الأدبية في قسميها الشعر والنثر، ثم منزلته العلمية.

وبعد هذا كله يتناول فلسفته مركزا على الفلسفة الإلهية عنده لما كان حولها من اختلاف في الآراء.

من هذا التمهيد ينتقل طه حسين إلى" مصادر الكتاب" والتي مالت في أغلبها إلى المنهج التاريخي فتعرض لها بالتفصيل: العربية والإفرنجية والإنجليزية وكذا الفرنسية وغيرها.

وقد شمل مؤلفه مقالات خمسًا:

جاء في" أولها" حديث عن زمان أبي العلاء ومكانه، إذ يرى أنه لابد لنا أن نصف عصر أبي العلاء في حاله الأدبية والفلسفية، ومزاجه الخلقي الاجتماعي حتى يتأتي لنا فهم أبي العلاء وكأنه شيء متصل بعصره لا منفصل عنه، وهنا تتجلى عنده آراء " تين" خاصة دراسة زمان أبي العلاء ومكانه وشعبه إذ يقول:" نعم إن لعصر أبي العلاء علينا أن نلم به هذه الإلمامة، ولنقضي حقه، ونفي بعهده، ولنستمد لأنفسنا منه القوة والأيد، فإن أمرا لا يصل حديثه بقديمه، ولا يؤلف بين لاحقه وسابقه، ولا يجمع طارفه إلى تالده، ولا يستمد حوله وطوله– بعد الله وصدق العزيمة– من حول آبائه وطولهم، حري بالموت، لا بالحياة، وبالعدم لا بالوجود"[47]، ثم يقوم بتحديد موضع عصر أبي العلاء من العصور العباسية فيرى أن الحياة السياسية للمسلمين تأثرت بحال الخلفاء، فقويت حين كانوا أقوياء، وضعفت حين كانوا ضعفاء.[48] ويتجلى أيضا من خلال رصده للظروف السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية التي ميزت عصر أبي العلاء فيراها ضرورية إذ يقول:" فليس لنا بد من أن نصف في عصر أبي العلاء،... حياته السياسية والاقتصادية، ومزاجه الخلقي والاجتماعي. ليتأتى لنا أن نفهم أبا العلاء"[49]. ثم ينتقل للحديث عن الحياة العقلية لهذا العصر فيشير إلى أن الأمة الإسلامية نقلت ما ورثت اليونان من أنواع الفلسفة والحكمة، فترجمت كتب أرسطو وأفلاطون، ويذهب إلى أن العرب عرفوا التاريخ قبل الإسلام برواية الحوادث واستظهارها، وعرف تدوينا مع الدولة الأموية، ويضيف طه حسين أن عصر أبي العلاء أزهر فيه التاريخ عند المسلمين في

جميع أقطاره. يلم المؤلف كذلك بكل الأغراض الفنية التي ازدهرت في هذا العصر من شعر، خطابه ورواية، ونحو وصرف، بالإضافة إلى العروض والقافية.[50]

بعد انتهاء طه حسين من التفصيل بهذا العصر والإلمام بكل ما كان فيه رغبة منه في رسم صورة واضحة في نفس القارئ تسهل له فهم أبي العلاء يقول في الصفحة 95:" ليس الغرض من الكتاب، إلا أن نفهم أبا العلاء حق الفهم ونعرف الصلة بينه وبين عصره، وذلك يقتضي أن نلمّ بكل ما ألممنا به في هذه المقالة".

ويخصص حسين" المقالة الثانية" لترجمة أبي العلاء، فيبدأها بحديث عن قبيلته ومولده، وتتجلى هنا آراء سانت بيف من خلال اهتمام المؤلف بكل ما يحيط بشخصية أبي العلاء منذ ولادته إلى ما بعد وفاته، ويعدها طه حسين دون شك مؤثرات تعمل على تكوين مزاجه الخلقي والعقلي.[51] ثم ينتقل في الطور الثاني من حياته إلى رحلته لبغداد، وكيف لقيه الناس هناك، لكنه لا يلبث أن يتعرض لإخفاقه فهو رجل شديد العفة، لم يكن ليمدح وزيرا أو ملكا، ولا ليقبل هدية أو عطاء من أحد. وفي رجوعه من بغداد يلقى خبر نعي أمه، الذي يوقع في نفسه شديد الحزن والألم، هكذا بدأت حياته بالمصائب فقد بصره، ومات أبوه ولزمه أثقل الأصحاب ظلا وأسمجهم مظهرا وأقبحهم جورا وهو الفقر فلما انحدر إلى بغداد لقيته الأيام بظلم السلطان له، ثم قدمت له بغداد كأسا من الشهرة العلمية مزاجها اليأس من حسن المقام، ليخلفه الأمل وينحز إليه اليأس، فعاد من بغداد كارها.[52]

وفي طوره الثالث يتحدث عن عزلة أبي العلاء ويصورها أدق تصوير، يقول في الصفحة 156:" فقد ارتوى فيها رجل مكفوف نحيف في وجهه آثار الجذري، ترتسم على جبينه صور مختلفة تمثل حزنه على أمة حينا، وألمه من عشرة الناس حينا، وأحله في السعادة التي يخبؤها له هذا السجن المظلم". ولكنه فشل في عزلته هذه، فإن كان أبو العلاء زهد في كل ملذات الحياة فلن يستطيع أن يزهد في العلم والتأليف، لأنّ كليهما يكلفه عشرة الناس لاحتياجه من يقرأ، ومن يكتب عنه.[53]

ثم يتطرق لشهرته وموضوع درسه، فهو لم يكن أستاذ فلسفة ودين وإنّما كان أستاذ لغة وأدب، غير أن لزومياته حملت شيئا من الفلسفة، لذا لابد من الاعتراف أن أبا العلاء قد درس طلابه الفلسفة أيضا، لأنه كان يملي عليهم شعره ونثره ويفسر ما احتاج إلى تفسير، وهذه الدروس الفلسفية شاعت عنه وتناقلها الناس، ورأوا فيها شيئا لم يعرفوه، وكان في أهل الأرض من ينكر الجديد ويسخط على الحديث فرموا الرجل بالزندقة.

كما يشير طه حسين إلى علاقة أبي العلاء بالسياسة ويتحدث عن ثروته وسيرته في بيته، ليخلص من هذا إلى أخلاقه فأقل ما يقال عنه أنه زهد وأعرض عن ملذات الحياة، وكان عفيفا قانعا، ذا عزة نفس، جعلته كريما سخيا طيبا طيلة حياته التي انتهت في 13 ربيع الأول(449هــ، 1058م).[54]

وتتضح معالم منهج طه حسين من خلال قوله في المقالة الثالثة ص 79" تدل المقالة الأولى على أن الحياة العامة في عصر أبي العلاء، لم تكن شيئا تطمئن إليه النفس، أو يرضى به الرجل الحكيم، لفساد ما كان فيها من سياسة وخلق ومن تقسيم ثروة وتأثير دين، وتدل المقالة الثانية على أن الحياة الخاصة لأبي العلاء، لم تكن خيرا من الحياة العامة، فقد مزجت بألوان من المصائب وعثور الجد، وعلى أنّ الرجل قد أحسن الدرس، وأجاد التعليم ورحل إلى مدن مختلفة... فهذه المؤثرات كلها قد اشتركت في تأليف التراث الأدبي لأبي العلاء، فإذا وصفنا هذا التراث كان من الحق علينا أن نحلله إلى عناصره ونرده إلى مصادره ونحن فاعلون إن شاء الله".

يفتتح طه حسين" المقالة الثالثة" من كتابه بحديثه عن أدب أبي العلاء واتصاله بكل ما يحيط به، ثم ينتقل إلى شعره الذي يظهر في دواوين ثلاثة هي:" سقط الزند" وهو المشهور، يشمل شعر أيام الصبا والشباب، و" الدرعيات" ديوان صغير يصف فيه الدرع خاصة، ثم لزومياته وهو أكبر الدواوين الثلاثة.

يُفصل طه حسين في كل ديوان على حدا، ويتجه بكلمة عامة حول منزلة أبي العلاء من الشعر، مركزا على خصائص شعره يقول في الصفحة 210:" وليس في شعراء العرب كافة، من يشارك أبا العلاء في خصال امتاز بها: منها أنه أحدث فنا في الشعر، لم يعرفه الناس من قبل، وهو الشعر الفلسفي الذي وضع فيه كتاب اللزوميات".

و" المقالة الرابعة" يحدثنا فيها عن اصطباغ أسلوبه الأدبي بالصبغة العلمية، وتعرض إلى ما درسه أبو العلاء من فنون، وكانت العلوم اللغوية هي أظهر هذه الفنون، فهي التي أمدت شعره ونثره بالغريب واصطلاحات العلم، وهي التي أنفق أيام عزلته في درسها كما يشير طه حسين إلى كتب أبي العلاء المنظومة والمنثورة في العلوم والآداب.[55]

وفي" المقالة الخامسة" والأخيرة، يخلص طه حسين إلى الفلسفة العلائية ويفصل فيها تفصيلا يظهر أسرارها ودقائقها، فيعرج على مصادرها وأصولها ثم أنواعها من فلسفة طبيعية ورياضية وإلهية.

ويتجلى منهجه في أنه يرجع هذه الفلسفة إلى الظروف التي كانت تحيط بأبي العلاء وبعصره يقول في الصفحة 235:" فأنت ترى أن فلسفة أبي العلاء لم تكن إلاّ نتيجة ما طاف به من أحوال عصره، ومن الواضح أن هذه الأحوال لم تزد على أن زهّدته في الحياة وحملته على التفكير والدرس، وأن هذا الدرس، وذلك التفكير، هما اللذان أنتجا له كثيرا من آرائه الخاصة في الفلسفة على اختلاف فنونها".

آراء نقدية حول الكتاب والمنهج المتبع فيه:

بعد استعراضنا لمضمون الكتاب الذي حاولنا فيه تقديم صورة واضحة عن منهج طه حسين، تجدر الإشارة إلي أن الكتاب طبع بعنوان" ذكرى أبي العلاء" لأول مرة بمطبعة الواعظ سنة 1334هـ/ 1915م في 410 صفحة، وطبع ثانية بمطبعة المجاهد مصر سنة 1922 في 384 صفحة، من غير حذف أو تغيير، وطبع ثالثة بعنوان" تجديد ذكرى أبي العلاء" في دار المعارف سنة 1973 في 311 صفحة وطبعته السادسة في دار المعارف أيضا سنة 1963 ويمثل منهجه هذا جانبا من أبرز الجوانب التي أعمل فيها طه حسين فكره النقدي، وهو محاولة وصل النتاج الأدبي بالزمن الذي قيل فيه، والبيئة التي عاش فيها والجماعة التي عبر عنها وهو ما عرف بالمنهج التاريخي، الذي يعني أساسا بدراسة العوامل المؤثرة في الأدب أو بعبارة أخرى أن الطابع التاريخي والسياسي والاجتماعي لازم لفهم الأدب وتفسيره، ولذا يقول ماهر فهي" لا يكون الأديب(المبدع) عبقريا لو تقدم عصره أو تأخر عنه ما دامت عوامل البيئة قد وجهته وأفرزته إلى هذه الوجهة"[56] وهذا المنهج كغيره يختص بمجموعة من المقومات أهمها:

1- أنّه يحاول أن يبلور العلاقات بين الأعمال الأدبية في إطار تاريخي زمني وهو بذلك يتعامل مع الأدب من الخارج، وتبعا لذلك فهو يحتاج إلى ثقافة واعية، وتتبع دقيق لحركة الزمن وما فيه من معطيات تنعكس بصورة مباشرة أو غير مباشرة غلى النص الأدبي، ويلعب المؤلف دور المحلل في ضوء تلك المراحل التي لا غنى عنها في العملية النقدية هذا ما نلحظه بوضوح في كتاب" تجديد ذكرى أبي العلاء"، فأبو العلاء عند طه حسين صورة مرتبطة بواقع طالما كان منشدا بكل أطرافه لاتجاهات الزمان والمكان والبيئة

والعصر والجنس وما ينبثق عنها من معطيات وأيديولوجيات سياسية وثقافية وهذا هو المنهج التاريخي في عمق مغزاه.

فبمجيء النقاد الذين ينتمون إلى المذهب الرومانتيكي، تغيرت نظرة النقاد إلى الأدب" وقد تجلت هذه النظرة في اتجاهين كبيرين، أحدهما ينظر إلى الأدب في علاقته بمؤلفه وعلى رأس الداعين إلى هذا الاتجاه مدام ديستايل، والاتجاه الثاني ينظر إلى الأدب من خلال علاقته بمؤلفه وعلى رأس الداعين لهذا الاتجاه سانت بيف وهذان الاتجاهان هما العمود الفقري للمنهج التاريخي".[57]

من خلال هذا المنظور حاول الدكتور محمد لخضر زبايدية أن يتعرف على جهود حسين في إدخال هذا المنهج في الدراسات الأدبية التي بدأها في سنواته الأولى حينما التحق بالجامعة الأهلية، يقول:" حيث تلقى على أيدي المستشرقين أصول هذا المنهج الحديث الذي نجده باديا في تلك المقالات التي كان ينتقد فيها كتاب النظرات للمنفلوطي (...) وقد ظل على هذا الحال إلى أن دخل مجال الدراسة الأدبية بعمل جاد وذلك سنة 1914، حيث عده الباحثون المحدثون الباكورة الأولى الناضجة في حقل الدراسات الأدبية المنهجية الحديثة وذلك العمل هو" ذكرى أبي العلاء" وقيمة هذا العمل تتمثل في أنه أول ترجمة عصرية متعمقة في الأدب العربي الحديث".[58]

2- هو منهج يختص بالتوفيق في الأعمال القديمة من حيث ذكرها وحفظها وترتيب ظواهرها في سياق التسلسل التاريخي، والتي يتكون منها حياة الأدباء وإنتاجهم والجمهور والعلاقات بين الكاتب ومستهلك الكتاب، ويقدم التفسيرات حول هذه الأشياء وعلى مستوى أعمق يحاول شرحها وحتى إحياءها، أو يقوم أمام تراكم الوقائع بإطلاق المعايير والقواعد التي تحكم بيئة الأدباء وسيرتهم الذاتية يقول تين:" إنه لمن الرئيس في دراسة الأدب أن نكون قادرين على أن نستنتج تاريخا معنويا، وأن نصل إلى بعض المعرفة بالقوانين النفسية التي تعتمد عليها الأحداث".[59]

هذه أهم الملامح التي تميز المنهج التاريخي وتحدد خصائصه، ولا شك أن معطياته قد لا تعطي كل الثمار المرجوة في الحركة النقدية، فهو منهج قديم، أهم ما يعيبه دراسته النص من الخارج، والوقوف على المغزى الواقعي الذي قد لا يكشف أحيانا رؤى النص، المتمثلة في التحليق والخيال، والبعد المثالي الذي تقتضيه مشاعر المؤلف (المبدع)، والمنهج التاريخي كسابقيه لقيته مجموعة من" الاعتراضات" أدت إلى ظهور

بدائل منهجية لمواكبة ما استجد في الساحة الأدبية والنقدية، من بينها جمالية التلقي التي تمكنت من صياغة رؤية منهجية جديدة متجاوزة العوائق التي تعرض لها المنهج التاريخي في صيغته المعهودة. فبالرغم من التغيير الملموس الذي عرفه عصر النهضة إلاّ أن المنهج التاريخي لم يستطيع أن يتخلص من النزعة التي كانت متحكمة في تصور جل النقاد القدامى، حيث ظل رواده يعتقدون أن الآليات التي يعتمدون عليها من شأنها أن تصل بهم إلى عين الحقيقة، حقيقة الأدب والأديب وحقيقة ما يحيط بينهما.

أما الدراسات التي اهتمت بجمالية التلقي فقد تمكنت من صياغة بديل نظري ومنهجي يتجاوز التصورات السائدة، وبصنيعها هذا تجاوزت التصور الذي حمله رواد المنهج التاريخي عن العمل الأدبي، ووجهت الاهتمام إلى العلاقة الحوارية بين النص وقرائه المتعاقبين، فلم يعد العمل الأدبي معها ووثيقة ينبغي على المؤرخ اكتشافها، ولكنه أصبح ظاهرة، أو ثمرة علاقة بين الذات(القارئ) والموضوع(النص).[60]

ثم مما سبقت الإشارة إليه أن الأركان الأساسية للمنهج التاريخي ثلاثة:" الأدب" باعتباره منطلق الدراسة" الأديب"، باعتباره الأصل الذي صدر عنه الأدب، و" البيئة" باعتبارها الفضاء الذي يؤطر كل من الأديب والأدب، وما نلاحظه هنا هو إهمال عنصر آخر في الظاهرة الأدبية هو القارئ، وقد تمكنت جمالية التلقي من وضع هذا العنصر في صلب اهتمامها، فلم تعد مهام المؤرخ معها تتلخص في تخليد مآثر القدامى لتمكين الأجيال اللاحقة من الإطلاع على تجارب الأجيال السابقة، لأن مؤرخ الأدب من منظور جمالية التلقي لا يعيد تشكيل الوقائع الماضية، كما حدثت بالفعل، ولكنه يعيد تشكيل إدراكه لتلك الوقائع.

ثم إن المنهج التاريخي ظل يتأرجح بين النزعة الموضوعية والذاتية، ونتج عن ذلك نوع من اللاتكافؤ في توظيف المؤرخين لكل من البعد التاريخي والفني، حيث يتضاءل اهتمام المؤرخ بالبعد الفني كلما تزايد إلحاحه على الدراسة الموضوعية، والعكس، فالاهتمام بالبعد التاريخي يتراجع كلما تزايد الإلحاح على الدراسة الذاتية الذوقية.

ورغم القصور الذي عانى منه المنهج التاريخي، إلاّ أنه لا يمكن لأحد إنكار الدور الذي لعبه في تطوير حقل الدراسة الأدبية، إذ لولاه لما تمكنت نظرية الأدب من صياغة أسئلة جديدة تتجاوز التركيز على المؤلف وتنفتح على كل من النص والقارئ، وقد

عبّر إيزر عن هذا المفهوم بقوله:" إنّ الميزة الأساسية لتاريخ التأويل هي أن الأسئلة المطروحة فيما مضى تظل مؤثرة عندما تصاغ أسئلة جديدة، فهي لا تغيب عن النظر فقط ولكنها تتحول إلى علامات الطريق المسدود، فالصعوبات الناشئة عن الأسئلة القديمة تؤدي إلى طرح أسئلة جديدة، ولهذا فإن الأسئلة القديمة تمهد الطريق للأسئلة الجديدة، لذلك فإن الانشغال الكلاسيكي يقصد المؤلف أدى إلى اهتمامنا باستجابة القارئ للنص".[61]

الهوامش:

1 سعد البازغي وميجان الرويلي، دليل الناقد العربي، المركز الثقافي، ط3، 2002، ص 358.

2 طه حسين– تجديد ذكرى أبي العلاء– دار المعارف– 1963، مصر، ط6، ص 04.

3 أبو قاسم محمد كروّ– طه حسين والمغرب العربي: مؤسسات بن عبد الله للنشر والتوزيع تونس 2001، ط1، ص 40.

4 طه حسين– في الشعر الجاهلي.

5 على موقع الانترنيت www.tunezine.com

6 أنظر: أبو قاسم محمد كروّ– المرجع السابق– ص 55.

7 أنظر: طه حسين– الأيام– مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة 1991، ج2، ص 06.

8 أنظر: أبو قاسم محمد كرو: المرجع السابق، ص 353.

9 أنظر: طه حسين– تجديد ذكرى أبي العلاء– المرجع السابق– ص 290.

10 محمد مصايف– دراسات في النقد والأدب– الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر– 1981، ص 123.

11 حلمي مرزوق– تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين– دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر 2004– ط1، ص 455.

12 أنظر: أبو قاسم محمد كروّ– المرجع السابق– ص 28.

13 حلمي مرزوق– المرجع السابق– ص 456.

14 حلمي مرزوق: المرجع نفسه، ص 457– 465.

15 حلمي مرزوق: المرجع نفسه، ص 457.

16 طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، المرجع السابق، ص 06.

17 طه حسين– الأيام– المرجع السابق– ص 156–157.

18 أنظر: أبو قاسم محمد كروّ– المرجع السابق، ص 30– 31.

19 أنظر: حلمي مرزوق، المرجع السابق، ص 462.

• تلخيص منهج S.Beuve في آنه على الناقد أن يأخذ من محبرة كل أديب الحبر الذي يشخص به، أما J.L.e Maitre فيهدف النقد عنده إلى تحديد التأثير الذي يحدثه الإبداع الأدبي في الناقد، ويفهم A.France النقد على أنه مغامرة الناقد خلال الإبداع الأدبي ومنهج هؤلاء يقوم على الإنطباع الشخصي للناقد، فأحكامهم ذاتية نابعة عن ذوق شخصي، أما النقد عند Taine فيحدد نوعية العمل الأدبي من خلال بيئته وعصره وجنسه، ويقترب منه منهج Brunetier الذي يرى أن النقد هو الحكم على الإبداع وتصنيفه، G.Lanson يجمع بين منهجي تين وبرونتيار.

20 حلمي مرزوق، المرجع السابق، ص 468.

21 أنظر: شايف عكاشة، نظرية الأدب في النقد ألتأثري العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية 1994 بن عكنون، الجزائر، ص 115.

22 أنظر: محمد لخضر زبايدية، وقفة مع منهج طه حسين النقدي، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر عدد 10 ديسمبر 1998، ص 60.

23 أنظر: شايف عكاشة، المرجع السابق، ص 121.

24 حلمي مرزوق، المرجع السابق، ص 470.

25 طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف مصر، القاهرة 1926، ص 48.

26 حلمي مرزوق، المرجع السابق، ص 475.

27 طه حسين، خصام ونقد، دار العلم للملايين، بيروت 1966، ط4، ص 36– 37.

28 أنظر: طه حسين: حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، القاهرة 1986، ج2، ط9، ص ص52– 53.

29 أنظر: حلمي مرزوق، المرجع السابق، ص 491.

30 أنظر: شايق عكاشة، المرجع السابق، ص 125.

31 طه حسين، في الشعر الجاهلي، المرجع السابق، ص 11– 12.

32 أنظر: غالي شكري، النهضة والسقوط في الفكر المصري، دار الطليعة بيروت، فبراير، 1982، ط2، ص 247، 248.

33 خيري شلبي: محاكمة طه حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر شباط 1982، بيروت، ص 09.
34 غالي شكري: المرجع السابق، ص 247.
35 خيري شبلي: المرجع نفسه، ص 06.
36 أنظر: خيري شبلي، المرجع السابق، ص 10.
37 أنظر: غالي شكري، المرجع السابق، ص 248.
38 خيري شلبي: المرجع السابق، ص 24.
39 أنظر: خيري شبيلي، المرجع نفسه، ص 25.
40 أنظر: غالي شكري: المرجع السابق، ص 256.
41 خيري شلبي: المرجع نفسه، ص 27.
42 خيري شلبي: المرجع نفسه، ص 28.
43 طه حسين: تجديد ذكرى أبي العلاء، ص 5.
44 طه حسين : المرجع السابق، ص 5.
45 طه حسين: المرجع السابق، ص 7.
46 طه حسين: المرجع السابق، ص 18.
47 طه حسين: المرجع السابق، ص 29.
48 أنظر، طه حسين: المرجع السابق، ص 30، 37.
49 طه حسين: المرجع السابق، ص 31.
50 أنظر، طه حسين: المرجع السابق، ص.ص 70، 80.
51 أنظر، طه حسين: المرجع السابق، ص.ص 103، 118.
52 أنظر، طه حسين: المرجع السابق، ص.ص 120، 124.
53 أنظر، طه حسين: المرجع السابق، ص.ص 150، 157.
54 أنظر، طه حسين: المرجع السابق، ص.ص 158، 172.
55 أنظر، طه حسين: المرجع السابق، ص.ص 212، 266.
56 ماهر فهمي: المذاهب النقدية، مكتبة النهضة، مصر، ط1، القاهرة، ص 181.
57 أنظر: محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، القاهرة، مكتبة آنجلو المصرية، ط3، 1962، ص 28- 29.

58 محمد لخضر زبايدية: المرجع السابق، ص 61.

59 حلمي مرزوق: المرجع السابق، ص 289.

60 أنظر: ميجان الرويلي، سعد البازغي: المرجع السابق، ص. ص 380– 389.

61 أيزر:" آفاق نقد استجابة القارىء، من قضايا التأويل والتلقي"، ومنشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 1994، ص 215.

المصادر والمراجع:

أبو قاسم محمد كروّ– طه حسين والمغرب العربي: مؤسسات بن عبد الله للنشر والتوزيع تونس 2001، ط1.

أيزر وولفغانغ:" آفاق نقد استجابة القارئ، من قضايا التأويل والتلقي"، ومنشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، 1994.

حلمي مرزوق– تطور النقد والتفكير الأدبي الحديث في الربع الأول من القرن العشرين– دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر 2004– ط1.

طه حسين– الأيام– مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة 1991، ج2.

طه حسين– تجديد ذكرى أبي العلاء– دار المعارف– 1963، مصر، ط6.

طه حسين: حديث الأربعاء، دار المعارف، مصر، القاهرة 1986، ج2، ط9.

طه حسين، خصام ونقد، دار العلم للملايين، بيروت 1966، ط4.

طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف مصر، القاهرة 1926..

غالي شكري، النهضة والسقوط في الفكر المصري، دار الطليعة بيروت، فبراير، 1982، ط2.

ماهر فهمي: المذاهب النقدية، مكتبة النهضة، مصر، ط1، القاهرة.

محمد غنيمي هلال: الأدب المقارن، القاهرة، مكتبة آنجلو المصرية، ط3، 1962.

محمد لخضر زبايدية، وقفة مع منهج طه حسين النقدي، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر عدد 10 ديسمبر 1998.

محمد مصايف– دراسات في النقد والأدب– الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر– 1981.

سعد البازغي وميجان الرويلي، دليل الناقد العربي، المركز الثقافي، ط3، 2002.

شايف عكاشة، نظرية الأدب في النقد ألتأثري العربي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية 1994 بن عكنون، الجزائر.

خيري شلبي: محاكمة طه حسين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر شباط 1982، بيروت.

موقع الانترنيت www.tunezine.com